٦- مأساة وموقف

في الأسبُوع الأوَّل من شَهر صَفَر عامَ ١٤١٢هـ، بينَما كنتُ يَوماً معَ المعاملات أتأمَّلُها تحرَّكَ الهاتفُ، وأجبتُ، وإذَا المتحدِّثُ مديرُ التَّعليم بالعُلا. وبدأَ المكالمةَ بالتَّحيَّة والسَّلام، ثُم أعقَبها بزَفرَة وأنَّة، وقالَ: سوفَ أُحدِّثُك عَن مَوضُوعٍ إنسانيٍّ جَدير بالاهتمامِ. إنَّه أمرُ طُلاب تعرَّضُوا لحَادث سَيْر وهُم في الطَّريق إلى المَدرسة، حيثُ يقومُ أحَدُ المواطنينَ بنَقل أبنَائه وأبنَاء جيرَانه كلَّ يومٍ بصفَة تطوُّعيَّة، وفي اليَوم الثَّامن والعشرينَ من شَهر ذي القعْدَة عامَ ١٤١١هـ، وبينَما الطلابُ في الطَّريق إلى

المَدرَسة بالسيَّارة الصَّالون وقعَ حادثٌ مروِّعٌ لهُم، ونتجَ عَنه وفاةُ ثمانيةٍ من طُلابِ المدرَسة، وإصابةُ أربعةٍ آخرينَ.

وذكرَ أنَّ وَضعَ أُسَرهم الماديَّ ضعيفٌ، وأنَّ حالَتَهم الإنسانيةَ تستوجبُ المساعدةَ. ولعلَّ الوَزارةَ تعملُ لذَويهم شيئاً.

ثم أرسلَ خطاباً رسمياً حولَ الموضوعِ.

وبتُّ في حَيرة وحَسرَة؛ فالنظامُ يحكمُ المسؤولَ ويُقيدُه، والاجتهادُ في الأمُور الماليَّة غيرُ وَارد، ولا يمكنُ صَرفُ ريَال إلاّ وفقَ نظامٍ يُجيزُ ذلكَ. فمَا العملُ إذنْ؟

فهلْ ـ يا تُرى ـ أعرضُ الأمرَ علَى مَعالِي وَزيرِ المعَارف وأتركُ لَه الرَّأيَ، أو أدرسُ الحالةَ وأجتهدُ في الاقتراحِ، أو أقدِّمُ له أكثرَ من رَأيي؟ وبقيَ الخطابُ بينَ يديَّ أسبوعاً لعلِّي أجدُ مَخرَجاً. وناقشتُ بعضَ المختصِّينَ في الوَزارة، فأجابُوا بأنَّ الحادثَ خارجَ المدرسة، والوزارةُ تحكمُها الأنظمةُ والتعليماتُ، ولا مجالَ للاجتهادِ.

ولكنْ إذَا أرادَ اللهُ تَيْسيرَ أمْرٍ فتحَ الأبوابَ ويسَّرَ الأسبابَ، ولهذَا تذكرتُ صورةَ خطَاب رأيتُه منذُ فَترة، هذَا الخطابُ واردٌ من وَزارة الماليَّة والاقتصَاد الوطنيِّ، ويَقضي بصَرف مبلَغٍ

مـاليٍّ لأسـرَة طَالب تُـوفِّيَ في إحـدَى المدَارس بسببِ سقوطِ خشبـةِ مرمَى كرةِ القَدمِ عليه وهوَ يلعبُ معَ زُملائه.

وحـمـدتُ اللهَ علَى هَذه الذَّاكـرة، وهاتفتُ القسمَ المختـصَّ، وطلبتُ منهُم البحثَ عَن تلكَ الصُّـورة، إلا أنَّهـم بعـدَ يومَين أبلغُـوني بعـدمِ العُثور علَى شَيء من ذلكَ، وطلبُـوا رقماً لذلكَ الخطَاب، فأفـدتُهم بأنِّي لا أحفَظُ رقـمَه، ولكنِّي أذكرُ مَـوضوعَـه، وصارَ بَيني وبينَ ذلكَ الـقسم أخذٌ وعطاءٌ، حـتَّى أنَّني كتـبتُ لَهم بخطِّ يَدي: أُقسمُ باللَّه ثلاثاً أنَّني متـأكِّدٌ من الأمْر، فواصِلُوا البحثَ أثابَكُم اللهُ.

وتابعتُ الأمرَ معَ موظَّفي ذلكَ القسْم فلم يجدُوا شيئاً، وأعيَاهم البحثُ، ولهمُ العذرُ في ذلكَ؛ فلدَيهم مئاتُ الأوراَق، وعشراتُ المُعَاملات، وهَذه معاملةٌ لا يعلمونَ من أينَ أتتْ، ولا أينَ ذهبَتْ، ولا اسمَ صَاحبِها، ولا المنطقةَ التِي تقعُ فيهَا المدرسةُ.

ثُم أسعفَتْني الذاكرةُ مرةً أخرَى، فتذكرتُ أنَّ مدرسةَ ذلكَ الطَّالب تقعُ في إحدَى إداراَت التَّعليم الجنوبيَّة أو الشَّماليَّة. ولهذَا استدعيتُ مديرَ مكتَبي، وطلبتُ منْه محادثةَ مُديرِي تلكَ المَناطقِ وسؤالَهم عَن هذا الموضوعِ.

وفي اليَوم التَّالي، جاءَني مديرُ المَكتَب وهُو

يبتسمُ، وقالَ: لقَد وجدتُ الأمرَ، إنَّه في إدَارة التَّعليم الفُلانيَّة، ولقَد أرسلَ مديرُ التَّعليمِ (بالفاكس) صورةَ الخطَاب الذي تبحثُ عَنه، وها هُو بينَ يدَيك، فحمدتُ اللهَ علَى ذلكَ.

وتأمَّلتُ الخطابَ فوجدتُ أنَّ الأساسَ النظاميَّ في الصَّرف لتلكَ الحَالة هُو قرارُ مَجلس الوُزراء رقم (٢٢٨)، المُؤَرَّخ في ١٨/ ١٢/ ١٤٠٠هـ، والذي يَقضي بأن يُصرَفَ لأوليَاء أمُور الطُّلاب السَّعوديينَ في كافَّة مرَاحلِ التَّعليم في حَالة الوَفاة داخلَ المَدرسَة ستونَ ألفَ ريالٍ.

وبعدَ استخَارة وتأمُّل اهتدَيْنا إلى أنَّه يمكنُ

تطبيقُ هذَا القَرار عَلى هَذه الحَالة، ولكنْ بعدَ استئذَان المقامِ السَّامي؛ لأنَّ الحادثَ وقعَ خارجَ المدرسةِ.

وجرَى استكمالُ الأوراَق، وتَّم إعدادُ عَرض للمَقام السَّامي بطلَب المُوافقة علَى تَطبيق هَذا القرَار، وصَرف ستينَ ألف ريَال لولـيِّ أمْر كلِّ طَالب مُتوَفّى، وعددُهم ثمانيةُ طُلاب، وثلاثينَ ألف ريَال لكلِّ طَالب مُصاب، وعددُهم أربعةُ طُلاب. وأُخذَت المعاملةُ لَمعالي وَزير المعَارف آنَذاكَ، د. عبد العزيز الخويطر، وأخبرتُه بتفاصيلِ الموضوعِ، وما توصَّلْنا إليه. ولقَد باركَ ذلكَ الإجرَاءَ، ووقَّعَ على الفَورِ خطابَ المَقام السَّامي.

وكلمةُ حقٍّ لا بدَّ من ذكرِها، فالدكتورُ الخويطر ـ وهوَ المشهورُ بالضَّبط والحَزم ـ هُو في مَجالات الخَيرِ سباقٌ، وللجَوانب الإنسانيةِ فعالٌ.

وتابعتُ الأمرَ، وكانَت الاستجابةُ الساميةُ الكريمةُ فوريةً وسريعةً. فقَد صدرَ توجيهٌ سامٍ لوزَارة الماليَّة والاقتصَاد الوطنيِّ بالصَّرف لذَوي الطُّلابِ وَفقَ مرئيَّات الوَزارة.

وهاتفتُ مديرَ التَّعليم في العُلا، وأخبرتُه أنَّ الجُهدَ قَد أثمرَ. وصدرَت الشيكاتُ، وسُلِّمَت المبالغُ لذَوي الطلابِ.

وقد حمـدتُ اللهَ، ودعوتُ لوليِّ الأمْر علَى استجابَته السَّريعة.

إنَّها مأساةُ مواطنينَ، ومواقفُ دولةٍ حَرِيةٌ بأنْ تُعرَفَ.

٧- استلم المفتاح

يقومُ الموجِّهونَ التَّربويُّونَ في مَناطق التَّعليم بجَوْلات ميدانيَّة، ويقضُونَ ثلاثةَ أرباع وَقتهم في الحركَة والتنقُّل بينَ المَدارس. ويرفعُ هؤلاء الرجالُ تقاريرَهم للمَسؤولينَ في إدارَات التَّعليم.

ولهَؤلاء الموجِّهينَ مهمَّات متعدِّدة، واختصاصاتٌ متنوعةٌ، فَمنهُم المختصُّ بتَوجيه مادَّة التَّربية الإسلاميَّة، وثان لمادَّة الرياضيَّات، وآخرُ باللُّغة العربية، ورابعٌ بالعُلوم.

وفئةٌ أخرَى من هَؤلاء تتولَّى تقويمَ مُديري المَدارس. ويُسمَّى هَؤلاء موجِّهي الإدَارة

المدرسيَّـة. وقَد لاحظتُ في أثنَاء عـمَلي أنَّ هذَا المجالَ يتقدَّمُ لطلَبه عـددٌ كَبير من الإخْوَة. ولعلَّ السـببَ أنَّه تَوجيـه إداريٌّ تربويٌّ، وليسَ علميّـا بحـتاً، فَـضـلاً عَن كَـونه تقويمًا لقَـائد المَدرسـة ومُديرها.

كما يوجَد موجِّهونَ للإرشَاد الطلابيِّ، وهذَا المجـالُ كذلك مـطلوبٌ ومرغـوبٌ؛ لأنَّه نشـاطٌ اجتماعيٌّ، وليسَ علمـيّا يستوجبُ من الموجِّه أنْ يكونَ متمكناً من المادَّة العلميَّة؛ فأمامَه عددٌ كبيرٌ من المعلِّمين يحـاورُونَه ويناقـشـونَه، وبعضُـهم يتفوَّقونَ علَيه في العلْم والمعرفَة.

وكـذلكَ هناكَ مـوجِّهـونَ للنَّشـاط التـربويِّ الاجـتـمـاعيِّ والمســرحيِّ والكَشْـفـيِّ والفنيِّ

والرياضيِّ، ويؤدي هَؤلاء دَوراً مُهماً في تَقويم المدَارس، ودَفعها نحوَ البَرامج التربويَّة المُساندة، التي لهَا الدَّورُ الكَبيرُ في تكوين شَخصيَّة الطَّالب وصَقْلها وإعدَادها.

ومطلوبٌ من جَميع هَؤلاء الموجِّهينَ على اختلاف مهمَّاتهم تزويدُ إدارَة التَّعليم برُؤيَتهم التربويَّة وانطباعَاتهم العامَّة عَن كلِّ مَدرسة يزورُونَها. وكانَ اللهُ في عَون أولئكَ الرِّجال فإنَّهم يصطدمونَ أحياناً بالمَيدَان، ويجدونَ حرَجاً من بَعض المعلِّمينَ وعَنتاً في بَعض المدَارس، ويتحوَّلُ التَّقويمُ إلى خلافٍ، ويتطورُ التوجيهُ إلى جدالٍ.

ولكنْ من نعمَة اللَّه أنَّ الخلافَ قليلٌ، وأنَّ

الوئامَ قائمٌ بينَ الموجِّهين والعاملينَ في المدَارس معَ كَثرَتهم الكَاثرة. بَلْ كثيراً مَا يطلبُ بعضُ المعلِّمينَ، وبعضُ مُديري المدَارس من الموجِّهينَ الزيارةَ للمُساعَدة وإبدَاء الرَّأي.

ومن تلكَ الصُّور أنِّي أتذكَّرُ أنَّه في شَهر من الشُّهور، يومَ أن كنتُ مديراً للتَّعليم بالرِّياض وصلَتْني تقاريرُ عَن ضَعف في إحدَى المدَارس، واتَّفقَ عددٌ من الموجِّهين عَلى قُصُور فى إدارَتها، ولكنَّهم رأَوْا منَحَ مُديرها مهلةً لإصْلاح القُصور، وأعطَوه وقتاً لمعالَجة الخَلَل. واتفقتُ معَ الموجِّهينَ في الرَّأي. وكتبتْ إدارةُ التَّعليم لمُدير المدرَسة رَسمياً بما علَيه، فجاءَ ذلكَ المديرُ غَاضباً، ودخلَ مكتَبي متجهِّماً، وأرغَى وأزبدَ،

وهاجمَ أولئكَ الموجِّهينَ، وقالَ في رَئيس التَّوجيه كَلاماً جَارحاً.

وبعدَ أنْ فرغَ الرجلُ من كَلامه هدَّأتُه، وأجلستُه وأفهمتُه أنَّني قَد اطَّلَعتُ علَى المُعامَلة وأخبرتُه بما علَيه من خَلل ونَقص، وأخبَرتُه أنِّي أشاركُ الموجِّهينَ الرأيَ، وأتفقُ معَهم فيمَا توصَّلوا إلَيه. ولكنَّ الرجلَ ساءَه قَولي، وغضبَ من قنَاعَتي، فقالَ: «وأنتَ معَهُم كذلكَ؟! هَذه مفاتيحُ المدرسَة. استلمُوا مدرستَكم». وأخرجَ من جَيبه ميدَالية بهَا مجموعةُ مفاتيحَ، ووضعَها علَى مكتَبي.

قلتُ لَه: حَسناً، إنَّه قَرارٌ صائبٌ يا أخي، توكَّلْ علَى اللَّه، ودَعِ المفاتيحَ، وسوفَ يقومُ

جهازُ المتابعَة باستلامِ المدرسَة، وتَسليمها للمُدير البَديل. أمَّا أنتَ فسوفَ توجَّه للمكان المُناسب.

وخرجَ الرجلُ غاضباً، وأظنُّه يلومُ ويعتبُ، وأحسبُهُ يردِّدُ أبياتَ الهجَاء التي يحفظُها.

واستدعَيتُ مديرَ المتابَعة آنذاكَ، الأخَ عبدَالعَزيز الشّدوخي، وهُوَ من خيرَة موظَّفي إدارَة التَّعليم بالرِّياض أمانةً وخُلُقاً ورحابةَ صَدر، وكرمَ خلُق، ولكنْ أسفَى أنَّه تقاعدَ، وتركَ الخدمةَ الحكوميةَ، وما أصعبَ فقْدَ أولئكَ الرجَال الذينَ تكوَّنَت لدَيهم خبرةٌ ودرايةٌ! إنَّهم كنوزٌ صارَت الدوائرُ الحكوميةُ تفقدُهم الواحدَ إثرَ الآخَر. المهمُّ جاءَ الرَّجلُ، وأفهَمتُه مَا جرَى. وأخذَ المعامَلةَ والمفاتيحَ التي تركَها ذلكَ المديرُ

الغاضبُ، وقلتُ لَه: أجزمُ أنَّ هَذه مفاتيحُ سيَّارته ودَاره، وربَّما مكتَبه، وليستْ مفاتيحَ المدرسَة، فللمدرَسة حارسٌ. وبعدَ صَلاة الظُّهر عادَ مُدير المُتَابَعة، الأخُ الشّدوخي ومعَه مديرُ المدرسَة وأبدَى أسفَه، وقدَّمَ اعتذارَه، وطلبَ منحَه مُهلةً لإصْلاح مَا لَدَيه من خَلَل، ورَجَا أنْ يزورَه الموجِّهونَ بعدَ ذلكَ لينظرُوا، ثُم يُقررُوا مَا يرَونَه نحوَ استمرَاره في إدارَة المَدرَسة أو تَحْويله لَموقع آخرَ.

وابتسمتُ، وقلتُ لَه: لا مانعَ، ولَكن لا تتعجَّلْ ولا تتسرَّعْ، فَفي التَّأنِّي السلامةُ، وفي العجَلة الندامةُ. واذهَبْ إلى مدرَستك، وترفَّقْ في قَولك، وكانَ اللهُ في عَونكَ.

٨- الحِمـار

عندمَـا أتحـدَّثُ عَن المعـلِّمينَ فـإنِّي أشـفقُ علَيهم؛ لأنِّي كنتُ معلِّمـاً مثلَهم، فلقَد مارستُ مهنَتَهم الشـاقةَ، وعرَفتُ الجهـدَ الذي يقدِّمُونه، والعطاءَ الذي يبذلُونَه.

وإنِّي أعـتـزُّ بكلِّ مـعلِّم، وأهنِّئُ كلَّ مـربٍّ، وأُطري كلَّ مؤدِّب؛ فـهُم صُنَّاع المُستَـقبل، وبُناةُ الغَد.

ولكنْ بينَ أولئكَ الرجَال مَن لا يصلُح لتلكَ المهْنة، ومـعَهم مَن لا يـقدِّرُ تلكَ الرِّسـالة، وفي صفُـوفهم الأحمقُ والسفـيهُ، فهُم كـسواهُم من

شَـرائح المجتـمَع وفـئَـاته، يوجَـد منهُم المتـميـزُ والقاصرُ، والجادُّ والمهملُ، والصالحُ والطالحُ.

وفي أثنَاء عملَي تردُني بعضُ المعامَلات التي تُحيِّـرُ وتُقلقُ، وتصلُ بعضَ القـضايَا العَـجيـبة، والمشَـاهد الغَريبـة، وتجعلُني أحـتارُ، وأتسـاءلُ: كـيفَ صـارَ هذَا الأمــرُ؟! وكـيفَ حـدثَ هذَا التـصـرفُ؟! ولكنْ من نـعـمَـة اللَّه أنَّهـا نادرةٌ وقليلةٌ.

ومن تلـكَ المعـامَــلات النَّـادرة أنَّه ذاتَ يَوم وجـدتُ مـع الأوراَق قـضـيــةَ مـعلِّم اشـتَكاه مـجمـوعةٌ من أوليَـاء الأمُـور؛ لأنَّه يكتبُ علَى جبَـاه أبنَائهـم عـبـارَة (الحـمَـار)، وذلكَ بخطٍّ

واضح، ويأمرُهم بالخُروج في الفسحَة، لكَي يراهُم زملاؤُهم، فيضحكون عَليهم، ويهزَأونَ بهم، ويسخَرون منهُم.

وقَد أخبرَ أولئكَ الطُّلابُ الأهلَ بمَا جرَى، وأشعرُوهم بمَا حصلَ من هَذا المعلِّم الأحمَق.

واشتكَى الآباءُ، وحقَّقت إدارةُ التَّعليم في الأمْر، وسألُوا ذلكَ المعلمَ عَن هَذا التصرُّف الغَريب. فقالَ إنَّه استخدمَ هذَا الأسلوبَ بدلاً من الضَّرب الذي منعَتْه الوزارةُ، وعوَضاً عن العُنف الذي يرفضُه بعضُ التَّربويِّين.

وقالُوا لَه: ويلٌ لَك؛ إنَّ الضربَ أرحمُ من

هذَا المنهَج الخَاطئ، وإنَّ القسوةَ أجملُ من هَذا الأسلُوب الأهوَج، ثُم هَل ترضَى أنْ يُكتبَ علَى جَبينك هذَا القولُ؟! أو تقبلُ أنْ يُخطَّ علَى وجهكَ هذَا اللفظُ؟! أو تستطيعَ الجلوسَ بينَ زُملائك المعلِّمينَ في المَدرسة وهُم قلةٌ وفوقَ رَأسك هَذه العبارةُ المنكَرةُ؟!

أَتُفضِّلُ أنْ يُحسَمَ علَيكَ، وأنْ تُنقَلَ من المدرسَة، وأنْ تتحولَ لعَمل آخرَ، أو يُكتبَ عليكَ مثلُ هَذا القَول؟

هذَا ولقَد كَان المحقِّق متمكِّناً، فلمَّا حاصَرَه بهَذه الأسئلَة كانَ جوابُه الرفضَ والغضبَ والشَّمَمَ والإباءَ.

وقَد تَمَّ محاسَبةُ ذلكَ المعلِّم، وجرَى تنبيهُ مُدير المدرَسة أنْ يكونَ يَقظاً مُتابعاً للمعلِّمينَ ليمنعَ مثلَ هَذه التصرُّفات الهَوْجَاء.

وبينَما كنت أكتبُ هَذه الحادثةَ تذكرتُ مَا رَواه ابنُ قتيبةَ في عُيون الأخبَار[1] من أنَّ بعضَ المعلِّمينَ كانَ يُقعدُ أبناءَ الميَاسير والحسَانَ الوُجوه في الظِّلِّ، ويُقعدُ الآخرينَ في الشَّمس ويقولُ: «يَا أهلَ الجنَّة ابزقُوا في وُجُوه أهْل النَّار».

وإنِّي أقولُ: إنَّ في كلِّ زمَان حَمقَى، وفي كلِّ مَكان بَلْوى.

---

(١) عيون الأخبار ٤/ ٤٠.